حكايات نحبها جميعاً

(١٤)

هذه ابنة
من هو خيرٌ منّي و منك ياعمر

الدكتور

محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

obeikandl.com

الطبعة الأولى
2006 - 1426

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

obeikandl.com

سَاعةٌ وَساعَة

وَبعدَ أَنْ سارُوا بِصَمتٍ.. سَمعَ الجَميعُ صَوْتَ والدةِ (سُميَّة) وَهِي تُنادِي:

هَيَّا إلىٰ الطَّعامِ ، فَقَدْ حَانَ وَقْتُ الأَكْلِ.. فَهبُّوا عَلىٰ بَرَكةِ اللهِ..

وَوَقفتْ (سُميَّة) وَدَعَتْ صَدِيقَاتِهَا إلىٰ تَنَاوُلِ الطَّعامِ.. ، وتَمتَمَتْ بِكَلماتٍ: سَاعة.. وساعَة!!

فَقَالَتْ (هِنْدٌ): وماذا يَعنِي ذلكَ يا سُميَّة؟

أَجابَتْ: إنَّ ذلكَ مِنَ الهَدي النَّبويِّ ، فَعلىٰ الإنسَانِ وَاجِباتٌ والتِزَاماتٌ ، فَليستِ الدُّنيَا اعتِكَافاً فِي المَسَاجِدِ ، وَلا جُلوساً فِي صَوْمَعاتٍ

obeikandl.com

وَلا انعِزَالاً عن النَّاسِ ، ولا تَركاً للمبَاحَاتِ... إِنَّما الدُّنيا كَمَا أَخْبَرَ رسولُ الله ﷺ وَهُوَ يَتحدَّثُ لأحَدِ أَصحَابِهِ: «يا حَنْظَلَةُ! ساعَةً وسَاعَة» أَي: ساعَة يَقْضِيْها المُؤمِنُ وهوَ يعيشُ فِي المَسْجِدِ ، وسَاعَةً يَقضِيهَا مَعَ زَوْجَتِهِ والأَولاد ، وساعَةً يَنطَلِقُ فِيهَا إلى كَدِّهِ وَعمَلِهِ... ، وساعَةً يَزورُ فيهَا جِيرانَهُ وأقارِبَهُ وأصدقاءَهُ... وَهكذا.

أمَّا الذينَ لا يُريدُونَ منَ الإنسانِ إلاّ الانزواءَ عَنْ حَرَكَةِ الحَياةِ ، فَهؤلاءِ مُخطِئونَ جِداً ، مِصداقُ ذلكَ قولُ اللهِ تَعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف: ٣٢] .

ابتَسَمتْ (مَيسونُ) وقالَتْ: صدَقْتِ يا عَزِيزَتِي، فكَمَا أَنَّ للجِسمِ غِذاءً وَهوَ الطَّعامُ والشَّرابُ ، كَذلكَ فَلِلرُّوحِ غِذاءٌ وهوَ العِلمُ والثَّقافَةُ والذِّكرُ.

ولا يُمْكنُ الاستِغْنَاءُ عَنِ غِذاءِ الرُّوحِ ولا عَنْ غِذاءِ الجِسْمِ..

قَالَتْ (سُميَّة): وَلِذلكَ قَرَّرْتُ ـ بَعْدَ الإذنِ مِنْكُم ـ أَنْ نُغذِّي عُقُولنَا وَأرواحَنَا بِذكرِ وَاحِدةٍ من الصَّالحات ، لَكن بَعدَ الطَّعامِ والشَّرابِ ، والمَرَحِ والتَّسليةِ ، واللَّعبِ الهَادِفِ.. ، فمَا هُوَ رَأيُكنَّ يا صَدِيقَاتِي؟!

ابتَسَمَتْ (هِنْدُ) ثُمَّ قالَتْ: ولعلَّكِ بذلكَ تُرِيدينَ المُضاربةَ على صَدِيْقَتِنَا (نَاهِد)؟!

هَزَّتْ (سُمَّيةُ) رَأسَهَا وقالَتْ: وَلكِنْ أَيْنَ أَنا مِنَ البَاحِثَةِ (نَاهِدٍ؟).

لكِنْ إنْ أَعجَبكُمْ عَمَلِي هَذا ، فَأَنا سَأُقَدِّمهُ إلىٰ صَدِيْقَتِنَا (نَاهِدٍ) كَعرْبُونِ صَدَاقَةٍ لتضمَّ تلكَ التَّرجمةَ إلى عَمَلِهَا الضَّخْم ، والمُهِمّ فِي ذلكَ كُلّهُ

أنْ يَكُونَ العَملُ أَولاً وَآخِراً خَالِصاً لوجْهِ اللهِ تَعالَىٰ.

صَاحَتْ (مَيسَاءُ): عَجباً، لكنَّ أُمَّ سُميَّة تُنَادِيْنَا.. وأَنْتنَّ تَتَناقَشْنَ فِي قَضايَا لا مَجَالَ لَها الآن! دَعُونَا فلتنَاوَل وَجْبَةَ الغَداءِ أَوّلاً... ثُمَّ تَكلَّمْنَ بما تُرِدْنَ..!!

وَضَحكتِ الفَتَياتُ مِنْ قَوْلِهَا... وانطَلَقْنَ إِلَىٰ تَحتِ الأَشجارِ الكَبِيرَةِ.. ثُمَّ جَلسنَ عَلىٰ الأَرضِ.. فَقالَتْ (هِنْدُ): آه! مَا أَجْمَلَ الجُلوسَ فِي أَحْضَانِ الطَّبيعَـةِ.. ، وَمَـا أَجمـلَ الأَكْـلَ مِـنَ الطَّعـامِ الطَّبيعيِّ..!

وَبعدَ الطَّعامِ.. تَنَاوَلْنَ الشَّايَ المَصْنُوعَ علىٰ الحَطَبِ.. ، ثُمَّ انطَلقْنَ إلى البُستانِ ، لِيُمارِسنَ بعـضَ أنـواعِ الـرِّيـاضَـاتِ والأَلعـابِ المُسَليـةِ والهَادِفَةِ.

وَاقتربتْ (نَاهِدٌ) مِنْ والدةِ سميَّةَ.. فرَأَتْهَا تَقِفُ إلى جِوارِ غُصْنِ شَجَرةٍ.. وَترقُبُ الفَتَياتِ ودُموعُ عَيْنَيهَا تَسِيلُ عَلى خَدَّيها.. فَقالتْ لهَا: ما لَكِ يا خالَة؟ كَأَنَّ أمراً ما قَدْ حَدَث؟

مَسَحَتْ أمُّ سُميَّةَ دُموعَ عَينَيهَا وَقالتْ: لا يا بُنَيَّتي ، فَشَريطُ الذِّكرياتِ عَادَ بِي إلىٰ الوَراءِ ، فتذكَّرتْ وَالدتِي وأُختِي (آيات) رَحِمَهمَا الله تَعالىٰ ، وَذلكَ عِندَما كُنَّا نَذهبُ بِصُحْبَةِ وَالدِي رَحمهُ اللهُ إلى مَزرعةٍ قُربَ نَبعِ المَاءِ.. تذكرتُهم فبَكيتُ لِلَوْعَةِ الفِراقِ.

.. ورَاحَتْ (نَاهِدٌ) تَتْلو عَلى مَسامِعَها بَعضَ الآياتِ القُرآنيةِ... والأحاديثِ النّبويّةِ... والقِصَصِ التي تُواسِي الإنسانَ فِي مُصَابِهِ.. وتُذكِّرهُ بِحَقِيْقَةِ التّسليمِ الأَوَّلِ والأَخِيْرِ للهِ رَبِّ العَالَمِين..

حَـدَّثتهَـا عـن حَـالِ رَسُـولِ اللهِ ﷺ عِنْـدَمـا حَضَرتِ ابنَهُ إبراهِيمَ الوَفَاةُ ، وَكيفَ حَمَلهُ بينَ يديهِ... فَسَالَتِ الدُّموعُ على الخَدَّينِ الشَّرِيْفَينِ.

وَكانَ إلى جِوارِهِ (عَبدُ الرَّحمنِ بن عَوف).. فقـالَ: يـا رَسُـولَ اللهِ! أَتَبْكِـي ، وأَنـتَ خَيـرُ المَخلوقاتِ وَأفضَلُهُمْ عِنْدَ اللهِ؟!

فقـالَ عَليـهِ الصَّـلاةُ وَالسَّـلامُ: «إِنَّ العَيـنَ لتَدمعُ ، وإِنَّ القَلْبَ لَيَحْزَنُ ، وإِنَّا على فِراقِكَ يا إبراهِيم لمَحْزُونُونَ ، ولا نَقولُ إِلاّ ما يُرضِي ربّنا: إِنَّا للهِ وَإِنَّا إليهِ راجِعُون».

وَردَّدَتْ والدةُ سُمَيَّةَ وَهِيَ تَسيرُ إِلَىٰ الإمامِ: إِنّا للهِ وإِنَّا إليهِ راجِعُون ، اللَّهُمَّ صَبِّرنا على حُكْمِكَ وقَضَائِكَ ، والطُفْ بِنَا فِيَما جَرتْ بِهِ المَقادِيرُ ، إِنَّكَ على كلِّ شيءٍ قدير..

هَذِهِ ابنَتُهُ مَنْ يا أبا بَكرٍ؟!

وَبعدَ قَليلٍ اجتَمَعَتِ الفَتياتُ تَحتَ شجرةِ التُّوتِ ، وَراحَتْ (سُميَّةُ) تَروِي لَهُنَّ تَرجَمةَ واحِدةٍ مِنَ الصَّحابِيَّاتِ:

ذَاتَ لَيلةٍ دَخَلتْ (جَميلةُ بنتُ سعد بن الرَّبيع) على أَبي بَكرٍ الصِّديقِ رضي الله عن الجَميعِ ، فألقَى لها رداءَهُ لتجلسَ عليه.

فقالَ الفَاروقُ عُمرُ رضي اللهُ عَنْهُ: مَنْ هَذهِ يا أَبَا بَكرٍ؟

فَقالَ أَبو بَكْرٍ: هَذهِ ابنَةُ مَنْ هُوَ خيرٌ مِنِّي وَمنكَ!!

فَقَالَ عُمَرُ: وَمَنْ هُوَ يا خَلِيْفَةَ الرَّسُولِ ﷺ؟

قالَ: رَجُلٌ تبوّأَ مَقعدهُ في الجَنَّةِ ، وبَقِيتُ أَنا

وَأنتَ ، هذهِ ابنةُ سَعْد بن الرَّبيع ، كَانَ مِنْ النُّقباءِ يَومَ العقبة ، وشَهدَ بَدْراً ، واستشهدَ يومَ أحُد ، وقالَ عَنْهُ النَّبيُّ ﷺ: «رَحِمَهُ اللهُ ، نَصحَ للهُ وَلِرسُولِهِ ، حَياً وَمَيتاً...».

وَفِي وَالِدَتِهَا أَنزلَ اللهُ آيةَ المِيراثِ!!

وَلمَّا اسْتُشْهِدَ وَالِدُهَا فِي أُحُدٍ كَانَتْ وَالدتُها حَامِلاً بِها ، وكَانَتْ منَ الصَّحابيّاتِ الفَاضِلاتِ ، وأَنزلَ اللهُ فِيْهَا قُرآناً.

تُحدِّثُنا كُتُبُ أَسبابِ النُّزولِ وَغيرهَا أَنَّهُ لمَّا استُشْهِدَ (سَعدُ بنُ الرَّبيعِ) ، جَاءَ أخوهُ فأَخذَ مِيراثَ سعد ، وكَانَ لسَعدٍ ابنتانِ ، وكَانَ المُسْلِمُونَ يَتَوارَثُونَ عَلىٰ ما كَانَ في الجَاهليَّةِ ، بحيثُ كَانَ الإناثُ يُحرمْنَ مِنَ المِيراثِ ، بَينَما كانَ جميعُ المِيراثِ مِنْ نَصِيْب الذُّكورِ!!

وَجَاءَتْ (عَمْرةُ) زَوجَةُ سَعْدٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُما إلىٰ رَسولِ اللهِ صلواتُ اللهِ عليهِ تَشْكُو ذلكَ الظَّلمَ والحَيفَ. ، وَهِيَ تَقُولُ: لِمَاذا يأخُذُ الرِّجالُ جَميعَ المِيرَاثِ وَتُحرمُ النِّساءُ منْ ذَلِكَ؟!

والرَّسولُ صَلواتُ اللهِ عليهِ يَقولُ لهَا: «يقضِي اللهُ فِي ذلك».

ويَشاءُ اللهُ أَنْ يسمعَ شَكواهَا ، فَتَنزِلُ آيةُ المِيرَاثِ عَلىٰ قَلبِ الرَّسولِ ، فيُرسلُ إلى عَمِّها قائِلاً: «أَعطِ ابنَتي سَعدٍ الثُّلثَينِ ، وأُمّهمَا الثُّمنَ ، ومَا بَقِيَ فهوَ لكَ».

وآيةُ المِيراثِ هِيَ قَولُ اللهِ تَعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ

لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿ [النساء: ١١] .

قالَتْ (هِنْد): رضيَ اللهُ عَن زَوجَةِ سَعدٍ وأرضَاهَا ، وليتَ النِّساءَ جَمِيعاً مِثْلُها ، فأَمثالُ تِلكَ المَرأَةِ تستطيعُ إعادَةَ الحُقُوقِ حَسبَ ما أَنْزَلَ اللهُ تَعالَىٰ ، وَعِنْدَئذٍ لا حَيفَ وَلا ظُلمَ يلحقُ النِّساءَ أَبداً!!

فِي بيْتِ القُرآنِ الكَرِيمِ!!

تَابَعَتْ (سُميَّةُ) حِكَايَتها الرَّائعةَ:

ودَارَ الزَّمنُ دَورتَهُ ، وعاشَتْ (أُمُّ سعد) فِي حِجْر أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ، حيثُ كَفلَها رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، حَتَّى إذا مَا بلَغَتْ سنَّ النّضجِ تَزَوَّجهَا

كَاتِبُ الوَحْيِ ، وشَيخُ القُرَّاءِ (زَيد بن ثَابِتٍ) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ..

فَعاشَتْ (أُمُّ سَعْدٍ) مَعَ القُرآنِ الكَريمِ ، فَأَتْقنَتْ حِفظَهُ ، وَعرفَتْ أَسبابَ نُزُولهِ ، وفَهِمَتْ حَلالهُ وحَرامَهُ ، وعَاشَتْ فِي جَوِّهِ الرُّوحيِّ.. ، حَتَّى غَدَتْ مَرْجِعَاً في ذلكَ كُلّه ، مِصداقُ ذلكَ ما رَواهُ (دَاودُ بنُ الحُصَينِ) ، قالَ: كُنْتُ أقرأُ على (أُمِّ سَعْدٍ) مَعَ ابنهَا (مُوسىٰ بن سَعْد) ، وكانَتْ يَتِيمَةً فِي حِجرِ أَبي بَكرٍ رضي اللهُ عَنِ الجَمِيعِ ، فَقَرأتُ عَليها: «وَالذينَ عاقدتَ أَيمانك».

فَقَالَتْ: لا. ولكِنْ: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٣٣] .

ثُمَّ قالَتْ: إِنَّمَا نَزَلَتْ فِي أَبي بَكْرٍ وابنِهِ

عَبْدِ الرحمنِ حينَ أَبى أَنْ يُسْلِمَ.

فَحَلَفَ أَبُو بَكْرٍ أَنْ لا يورثَهُ ، فلمَّا أَسلمَ أَمرَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ أَنْ يُورِّثَهُ نَصِيْبَهُ.. وأَرْدَفَتْ (سُميَّةُ) قائِلةً:

وَكَذٰلِكَ فِي مسائِلِ الأَحَادِيثِ النَّبويّةِ فَقَدْ كانَ لهَا بَاعٌ طَويلٌ ، وكذلكَ فِي تفصيلاتِ السِّيرةِ النّبويّةِ ، حتَّى إِنَّ كثيراً مِنْ كِبَارِ الصَّحابةِ وَالتَّابعينَ كانُوا يسأَلُونَها فِي ذلكَ..

فَرَضِيَ اللهُ عَنْهَا وأَرضاها... والحَمْدُ للهِ رَبِّ العالمين..

عَهدٌ.. ولكِنْ مَتى يكونُ الوَفاءُ؟!

وَصفَّقَتِ الفَتياتُ لِسُميَّةَ.. وأقبلنَ عَليها ، وهنَّ يدعونَ اللهَ لَها بالتَّوفيقِ والفُتوحِ.. ،

بَيْنَمَا طَلبتْ (نَاهدٌ) مِنْهَا أَنْ تُعطِيها الوَرَقَةَ.. لتَضمَّها إلى مَشْروعِها الكَبيرِ..

ثُمَّ قالَتْ (ناهدٌ): سآخذُ عليكنَّ العَهْدَ من كَانَ باستِطاعَتِهَا تَقديمَ مثل هذهِ التَّرجمةِ فَلا تُقَصِّر.. فالعَملُ أَولاً وأخيراً هُوَ خِدمةُ العِلمِ.. وَفِي سَبيلِ اللهِ تَعالىٰ..

وَصَدَقَ اللهُ تَعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ ﴾ [التوبة: ١٠٥] .

وآخرُ دعوانا أَنِ الحمدُ للهِ رَبِّ العالمين

obeikandl.com